
احمــد صليحة
حول العالم
الهندُ

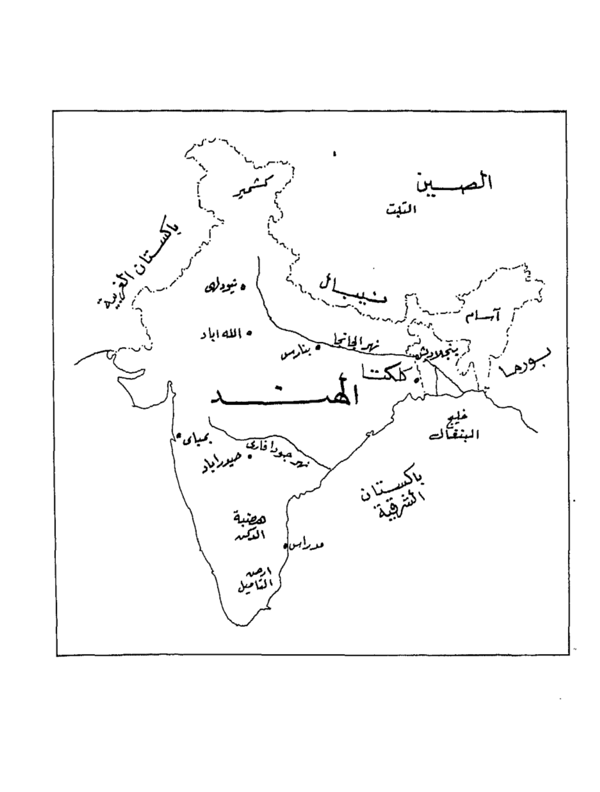
حول العالم



الهند

أحمد صليحة

منف للنشر والخدمات الإعلامية



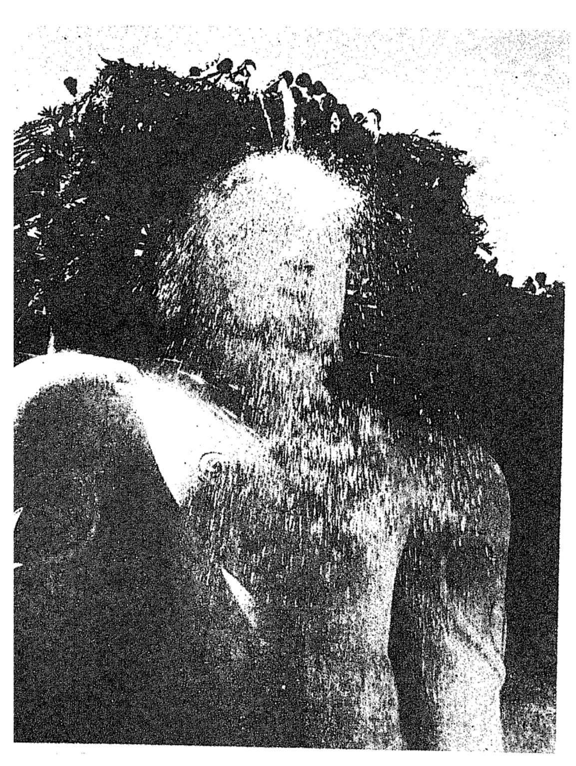
الصين
التبت
كشمير
باكستان الغربية
نيبال
نيودلهي
الله اباد
نهر الجانجا
بنارس
بنجلاديش
آسام
بورما
كلكتا
الهند
خليج البنغال
بمباي
نهر جودافاري
حيدراباد
باكستان الشرقية
هضبة الدكن
مدراس
ارض التاميل

الهند عبر الزمان

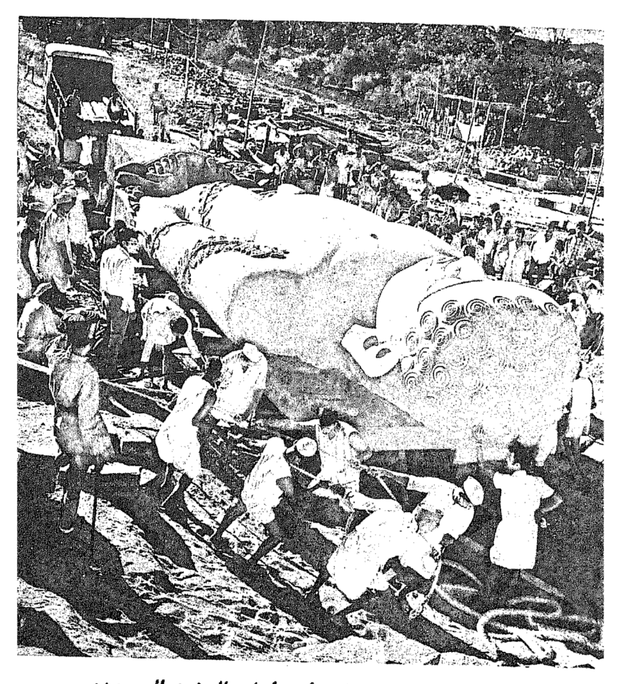
«تقول الأساطير إن الإله شيفا صعد فى يوم قائظ جبال الهمالايا، ورأى فى عليائه نهرا ينساب فى السماء، فدعا النهر أن يسكب ماءه على رأسه. ورأى ناسك من صومعته أن الماء يغيض فى رأس الإله، ولايصل إلى الأرض، فدعا شيفا إلى أن يترك الماء يهبط، واستجاب الإله لدعائه، وأرخى جديلة من شعره على قمة الجبل، ومنها انسابت مياه نهر الجانجا لتحيى موات الأرض.

ومن جسد الإله بوروشا، كما تقول الأسطورة جاء الإنسان، فمن فمه خرج الكهنة، ومن ذراعيه جاء الجنود، ومن ساقيه جاء الفلاحون، ومن قدميه جاء الخدم، وهكذا انقسم البشر إلى طبقات متتالية، ودونها فئة منبوذة من الناس خرجت من باطن قدم الإله، وليس لأفراد أية طبقة أن يتزاوجوا مع الطبقات الأخرى، أما الطبقة الأخيرة فهى فئة دنسة عليها أن تتوارى دائما عن أعين الطبقات الأخرى حتى أن ظل أحد أفرادها إذا وقع على أحد أفراد طبقة الكهنة أو البراهما فهو كفيل بأن يدنسه..

لكن الحياة تمضى كالنهر الجارى، تخرج فيها الأرواح من الروح الكونى، وتنتقل إلى الأجساد، وتخرج الروح من صاحبها



المتعبدون يصبون اللبن على تمثال الإله لاكتساب البركة



نقل تمثال المعبود «باهو بالى» أحد أرباب الجينيين إلى معبده

لدى موته لتدخل فى جسد آخر وتبدأ حياة جديدة فينتقل الإنسان
حسب عمله من طبقة إلى أخرى أعلى أو أدنى حسب صلاحه أو

فساده، أو قد تنتقل إلى حيوان أو نبات أو حتى حشرة أو جماد..

وتلك هى عقيدة التناسخ التى تحدثنا عنها أسفار الفيدا والأوبانشيدات «كتب الهندوس المقدسة».

وبعيدا عن الأساطير يقول التاريخ إن أقدم حضارات الهند نشأت فى وادى نهر السند الذى ينحدر كالجانجا من جبال الهمالايا ويصب ماءه فى المحيط الهندى، ومنه اشتق اسم الهند، إذ إن الفرس حينما وصلوا إليه ثقل على ألسنتهم نطقه، فحدفوا حرف «السين»، وأطلقوا هذا الاسم على الأرض الواقعة خلفه وعلى أهلها، ومن الطريف أن هذا النهر يقع الآن فى دولة باكستان بعد انفصالها عن الهند عام ١٩٤٧.

وفى أرض هذا الوادى نشأت الحضارة الدرافيدية فى عام ٢٥٠٠ ق.م تقريبا، ومن أشهر مدنها مهانجودارو التى زودت بشبكة صرف صحى تعتبر أقدم شبكة معروفة من نوعها، مما يدل على مبلغ رقى أهلها. وقد ابتكر الدرافيديون نظاما للكتابة التصويرية يشبه الهيروغليفية المصرية، ولكن العلماء لم يفكوا طلاسم هذه الكتابة حتى يومنا هذا، وكانت نهاية هذه الحضارة مأسوية، حينما اجتاحت قبائل بربرية من أصل آرى أراضيها

ومدنها، فأحرقتها ودمرتها، وفر الكثير من سكانها إلى أقصى جنوب الهند حيث ينحدر منهم الآن شعب التاميل، بينما واصل الآريون زحفهم حتى وصلوا إلى دلتا الجانجا وسيطروا على شمال الهند، وكان ذلك عام ١٥٠٠ ق.م.

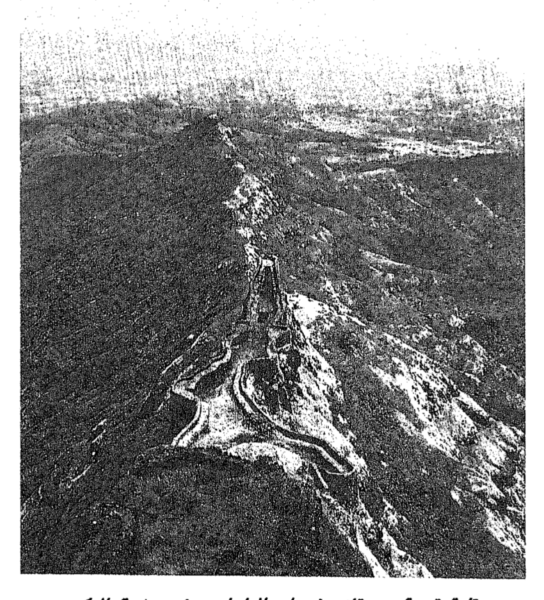
وسرعان ماتخلى الآريون عن بدواتهم، وامتزجوا مع بقايا السكان الأصليين، وتعلموا فنون الحضارة، وأسسوا المدن، ودونوا الكتب بلغتهم الجديدة السنسكريتية، ومن أشهرها أسفار الفيدا والأوبانشيدات وملاحم المهابهراتا والرامايانا، التي مزجت أحداث التاريخبالأساطير.

ولايخلع التاريخ عباءة الأساطير إلا في فترة متأخرة نسبيا، حيث تبرز مملكة الموريين التي أسسها شندراجابوتا في ٣٢١ ق.م، وكانت عاصمتها باتنا، بالقرب من نيودلهي الحالية، ومن أهم أباطرتها أشوكا، الملك الزاهد الذي أعتنق البوذية، وحمل رسالتها وعمل على نشرها في ربوع الهند وماحولها.

وكان مؤسس البوذية نفسه أميرا هنديا ولد في عام ٥٦٣ ق.م تقريبا، وكان اسمه الأصلي سيدارتا جوتاما. وقد هاله البؤس والشقاء الذي يعاني منه الإنسان، فهجر حياة الترف، وعاش عيشة

الرهبان الزاهدين التماسا لخلاص روحه، ثم توصل بعد صراع وجهاد روحى طويل إلى أن خلاص الإنسان يكمن فى تمتعه بحالة من طمأنينة النفس التى يستطيع أن يصل إليها بكف الأذى والعمل الصالح والتزام الفضيلة والتأمل، ولكن بعد موته رفعه أتباعه إلى مرتبة الألوهية، وحولوا دعوته إلى دين له معابد وكهان ورهبان، وانتشرت هذه الديانة من الهند إلى الصين واليابان، ولكن البوذية لم تعش طويلا فى الهند التى عادت إلى الهندوكية فيما بعد فى عهد مملكة جوبتا التى ازدهرت الفنون والآداب فى عهدها، ولكنها تعرضت لغزوة شرسة من قبائل الهون البربرية، وكان من أثر ذلك أن تفكك الشمال إلى دويلات صغيرة متنازعة، ولم يقدر له الاتحاد من جديد حتى دخول الإسلام.

تأسست أولى الممالك الإسلامية الهندية فى دلهى، وعندما غزت جيوش السلطان محمد الغورى الشمال، وبعد وفاته نصب قائد جيوشه قطب الدين نفسه سلطانا على دلهى. لكن عصر الازدهار الحقيقى للحضارة الهندية الإسلامية كان فى عهد الأسرة المغولية التى أسسها باهور عام ١٥٢٧ وكان باهور هذا وأبناؤه من أحفاد تيمورلنك وجنكيزخان اللذين روعا العالم بقسوتهما ووحشيتهما، وهما مضرب الأمثال حتى يومنا هذا، لكنّ باهور وخلفاءه كانوا



قلعة قديمة من قلاع فرسان الراجابوت فى هضبة الدكن

على النقيض من أسلافهم، إذ كانوا رعاة حقيقيين للآداب والفنون، ومازالت آثارهم فى الهند وعلى رأسها تاج محل تشهد على ذلك.

ولكن سرعان ما دب الضعف فى الأسرة المغولية، واشتد الصراع بين الممالك الهندية المختلفة، ودب النزاع بين الهندوس

والمسلمين، مما مهد الطريق إلى سيطرة الإنجليز على الهند بأسرها، وكانت البداية تأسيس شركة تجارية للتعامل مع الهند «شركة الهند الشرقية»، ثم استخدم الإنجليز أساطيلهم وأسلحتهم الحديثة لحسم الصراع بين الأمراء والسلاطين المتنازعين ولإبعاد القوى الاستعمارية الأخرى المناوئة، وسرعان ما أضحى الإنجليز هم القوة المسيطرة، وإن احتفظوا للحكام القدامى بالسلطة الاسمية.

ولم يتورع الإنجليز عن استخدام القوة لسحق أى تمرد أو ثورة وكان آخرها ثورة عام ١٨٥٧ التى اندلعت فى مدينة دلهى عندما انتشرت إشاعة تقول إن الإنجليز يستخدمون دهن الخنازير والأبقار لتشحيم رصاص البنادق التى يستخدمها الجنود الحكوميون، وكان هذا دافعا لثورة الجنود المسلمين الذين يعتبرون الخنزير حيوانا نجسا والجنود الهندوس الذين يقدسون الأبقار.

وكان محكوما على هذه الثورة بالفشل كغيرها لأن طابعها كان العشوائية والتشرذم، فالحق أن الهنود لم يكونوا حتى ذلك الحين قد وعوا بمبدأ المواطنة الهندية الذى يعلو فوق الانقسام العرقى أو الطائفى، وكان الانتماء للعقيدة لا للأرض، وكانت أعمال العنف الطائفية أخطر وأشد من الثورات الموجهة ضد المستعمر، مما جعل

وجود الإنجليز عاملا ملطفا لهذا العنف وليد الكراهية بين طوائف الأمة من الهندوس والمسلمين والسيخ والمسيحيين والبوذيين وغيرهم، وكان مما زاد الطين بلة نظام الطبقات الراسخ فى تقاليد الهندوس الذى عرضنا له فى صدر هذا الكتاب، والذى قسم الناس إلى كهنة (براهما) وجنود (كشاتريا) وفلاحين (فيسيا) وخدم (سودرا) وأخرج من عداد البشر طائفة «المنبوذين» رغم أنهم يمثلون قطاعا واسعا من سكان الهند.

وكان أن تنبه عقلاء الأمة فى نهاية القرن التاسع عشر إلى أهمية فكرة المواطنة فى تأسيس دولة هندية حديثة مستقلة يتمتع فيها الأفراد بكافة الحقوق ويلتزمون بكافة الواجبات على قدم المساواة بغض النظر عن الجنس أو اللغة أو الدين، وجسد ذلك تأسيس حزب المؤتمر الذى قاد النضال ضد المستعمر على درب جديد ومنهج مبتكر وضعه المفكر والزعيم الوطنى العظيم المهاتما غاندى. كان منهج هذا الزعيم هو المقاومة السلمية، أو بمعنى دقيق رفض الانصياع إلى أوامر السلطات الاستعمارية، أى العصيان المدنى، والامتناع عن شراء البضائع التى ينتجها المستعمر، وكان معنى ذلك أن تتقوض السلطة وأن تفلس الاحتكارات حتى تغدو السيطرة على الهند عبثا بل عبئا على كاهل الإنجليز. وعاش هذا

الرجل العظيم «غاندى» وفيا لمبادئه، ينشر رسالة الحب والتآخى بين البشر فى عصر مجنون سادته الأفكار الفاشية والنازية القائمة على عبادة الفرد والعنصرية، وبينما تقوضت النظم الفاشية والنازية تكللت دعوته هو بالنجاح واستقلت الهند فى عام ١٩٤٧.

ومن المؤسف أن فريقا من المسلمين، قد تخوفوا من أن يصبحوا أقلية فى الهند، فطالبوا بدولة مستقلة لهم، ورحب الإنجليز بذلك، وأعطوهم إقليم السند وإقليم البنغال ليؤسسوا دولة لهم «باكستان». وكان هذا تحطيما لفكرة الإخاء بين الأديان التى نادى بها غاندى، وبينما انتهجت الهند المستقلة على درب غاندى نظاما ديمقراطيا قائما على التعددية الحزبية وعمل قادتها على تحطيم نظام الطبقات القديم، تعاقبت على حكم باكستان لفترة طويلة أنظمة ديكتاتورية عسكرية حتى تمكنت فى نهاية المطاف من إقامة حكومة ديمقراطية قائمة على التعدد الحزبى، ومن المؤسف أيضا أن باكستان نفسها قد انقسمت إلى دولتين بعد أن استقل عنها إقليم البنغال ليصبح جمهورية بنغلاديش.

والهند الآن جمهورية فيدرالية تتألف من اتحاد ٢٢ ولاية على غرار الولايات المتحدة، ويشكل حكومتها الحزب الذى يحصل على أعلى عدد من مقاعد البرلمان الفيدرالى، والسلطة العليا فيها لرئيس

الوزراء، لا لرئيس الجمهورية الذى لايزيد دوره عن كونه حكما بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية. وكان أشهر رؤساء الوزارات نهرو الذى أسس مع الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر حركة عدم الانحياز، وابنته العظيمة أنديرا غاندى التى لقيت مصرعها نتيجة لإيمانها القوى بالإخاء الإنسانى، فقد كان بعض المتطرفين من أفراد طائفة السيخ يطالبون بالانفصال عن الهند، ونصحها البعض بإقصاء حراسها من طائفة السيخ، ولكنها رفضت ذلك، وكان أن أطلق عليها أحد حراسها السيخ النار، فقتلها، وذهبت شهيدة لمبادئها مثل غاندى العظيم نفسه الذى قتله أحد المتعصبين الهندوس، فسلام على روحيهما.

الهند عبر المكان

الهند الآن من أكبر بلدان العالم فمساحتها تربو على ثلاثة ملايين كيلومتر، وعدد سكانها يزيد على ٨٥٠ مليون نسمة، وهى تقع فى جنوب قارة آسيا، وهى شبة جزيرة تمتد فى مياه المحيط الهندى، وقاعدتها جبال الهمالايا الشاهقة التى تضم قمة إفرست، أعلى جبال العالم، وعند أقصى الطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة الهندية تقع جزيرة سيلان التي تعرف اليوم باسم جمهورية

سرى لانكا ويحد الهند من الشرق إلى الغرب دول كثيرة (بنجلاديش وبوتان ونيبال والصين وباكستان). ويمكن تقسيم السكان بعامة من الناحية العرقية إلى هندو آريين (٧٢٪) ودرافيديين (٢٥٪). واللغة الرسمية هناك هى الإنجليزية والهندية إلى جانب ١٤ لغة كبرى، أما اللغات المحلية واللهجات فهى لاتكاد تعد أو تحصى، ويؤلف الهندوس الغالبية الساحقة من السكان (٨٣٪)، أما النسبة الباقية فتتألف من المسلمين والسيخ والجينيين والمسيحيين والبوذيين ولاعجب إذن أن وصفت الهند بشبه القارة.

ويخترق مدار السرطان شبه الجزيرة الهندية فى منتصفها تقريبا، ولذا فهى تنتمى إلى الأقاليم المدارية غزيرة الأمطار شديدة الحرارة، ولكن ارتفاع أراضى الأقاليم الشمالية يلطف من حدة الحرارة، وفى المناطق شديدة الارتفاع تكسو الثلوج قمم الجبال.

ومن جبال الهمالايا ينحدر نهر الجانجا العظيم الذى أشرنا إليه من قبل ليروى السهول الشمالية ثم يصب فى مياه المحيط الهندى. وإلى الجنوب منه تنهض هضبة الدكن التى تنحدر منها عدة أنهار لتروى السهول الساحلية، ومعظمها أنهار موسمية، أى لاتمتلىء بالماء إلا فى موسم المطر، حيث تتسبب الرياح الموسمية فى هطول أمطار غزيرة من شهر يونيو حتى أكتوبر، ثم تخف حدة المطر حتى

يبدأ موسم الجفاف بعد شهر فبراير.

وبفضل تلك الأمطار الغزيرة عم الخصب الهند، وقد تضافرت عوامل تنوع البيئة الطبيعية وغزارة الأمطار والحرارة لتمنح الهند ثروة نباتية هائلة دفعت التجار من أوربا والشرق الأوسط إلى المغامرة بحياتهم وسط الصحارى الجافة والبحار والمحيطات العاصفة للحصول على التوابل والعطور والأخشاب الثمينة، وكانت هذه الرحلات مصدر الأساطير التى تتحدث عن عجائب الهند وغرائبها التى تحدثنا عنها قصص ألف ليلة وليلة.

إنها الأرض التى قال عنها شاعرها المسلم عبد الأحد آزاد: (*)

على سطوح أوديتى

أنشر أبسطة المخمل الأخضر لأصدقائى

لتستريح أطرافهم المتعبة

وليمرح عشاق الجمال

الجميع يأتون إلى

يجلسون.. يمرحون

* جميع القصائد الواردة فى هذا الكتاب من ترجمة الصديق سوريال عبد الملك.

يستحمون ويشربون

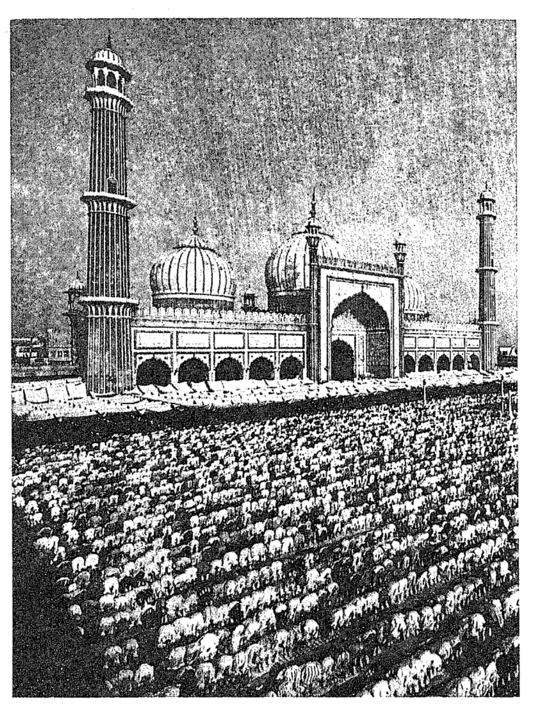
أعطيهم السعادة والفرح

والحرية بلا حدود

نيودلهى

من فوق أسوار القلعة الحمراء، ذلك الحصن الذى أقامه السلطان شاه جهان عام ١٦٣٨ على الضفة الغربية لنهر يامونا، رأيت بانوراما ساحرة لنيودلهى عاصمة الهند. إنها مدينة يمتزج فيها الماضى بالحاضر، فقبالة الأسوار تمتد مدينة دلهى القديمة، حاضرة الإسلام الأولى فى الهند، تتوجها القباب الضخمة والمآذن السامقة، ومنها يأتى صوت المؤذن، لأغيب معه فى غمرات التاريخ، وكأنى أرى أبواب القصر تفتح، ومنها يهرع العبيد بجلودهم السوداء اللامعة وعمائمهم البيضاء الفارعة، وهم يفرشون الأرض بالطنافس وشقق الحرير حتى يخرج السلطان ليسير عليها حتى جامع دلهى العتيق ليؤدى الصلاة كعادته فى كل يوم جمعة.

انتبهت على صوت الصاحب سنغ، دليلى فى الرحلة، وهو رجل



جامع دلهى العظيم.. من منشآت شاه جيهان

شيخ مسنٌّ طيب، أبرز مافيه، بعد ابتسامته المشرقة، لحيته الكثة وعمامته الضخمة التى جعلتنى فى بادئ الأمر أحسبه مهراجا ممن اعتدت مشاهدتهم فى أفلام السينما، ولكنى فيما بعد علمت أن اللحية الكثة والعمامة هما سمتا طائفة السيخ الدينية التى ينتمى إليها، والتى تحرم على أتباعها قص الشعر، وهى طائفة دينية أسسها الحكيم «ناناك» فى مطلع القرن السادس عشر، وحاول أن يجمع فيها بين تعاليم الهندوسية والإسلام، فدعا إلى عبادة الإله الواحد، وأنكر التعددية وتقديس الأصنام، ولكن السيخ مثل الهندوس يؤمنون بالتناسخ ويحرقون موتاهم عند وفاتهم، وهم مشهورون بالذكاء والكرم والشجاعة، وقد حرص الإنجليز على تجنيد الكثيرين منهم فى جيوش الإمبراطورية ويحمل الذكور منهم جميعا لقب «سنغ» أى «أسد»، أما «صاحب» فهى كلمة هندية محرفة عن العربية وتعنى السيد.

قلت وأنا أشير إلى المسجد العتيق الذى بناه شاه جيهان:

– كنت أحسب نيودلهى مدنية هندوسية، ولكن من يراها يحسبها عاصمة دولة إسلامية.

قال «سنغ»: لقد كانت دلهى القديمة حاضرة الإسلام فى الهند

نحو ثمانية قرون، منذ أن فتحها السلطان محمد الغورى عام ١١٩٢ وحتى استسلام آخر سلاطين المغول بعد فشل ثورة ١٨٥٧، وفيما بعد فى عام ١٩١١ بنى الإنجليز مدينة جديدة إلى الجنوب من دلهى اسموها بدلهى الجديدة أو نيودلهى لتكون عاصمة للهند.

وأشار «سنغ» إلى الجانب الجنوبى من المدينة حيث الشوارع أوسع والميادين



افراد طائفة السيخ يحتفلون باحد اعيادهم

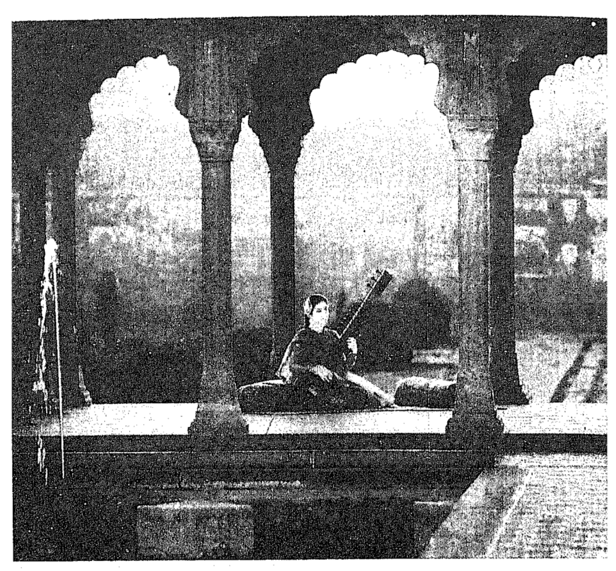
أرحب. وفى الوسط تقريبا قصر ينهض على ربوة خضراء تحيطها حديقة على الطراز الهندى. قال سنغ إنه قصر الحاكم البريطانى الذى تحول بعد الاستقلال إلى مقر رئاسة الجمهورية، وقبالته بناء دائرى تحيطه الأعمدة هو البرلمان الفيدرالى، رمز الديقراطية الهندية، وقد اتسعت المدينتان دلهى القديمة والجديدة والتحمتا وغلب الاسم الجديد «نيودلهى» عليها وأصبح تعداد سكانها اليوم ٩ ملايين نسمة.

وقال سنغ: لقد أبدى ملوك المسلمين تسامحا كبيرا مع الهندوس واعتبروهم من أهل الذمة وأشركوهم فى الإدارة حتى أن السلطان المغولى العظيم «أكبر» قد أعفاهم من الجزية، أما أشهر ملوك المسلمين فى الهند قاطبة فكان شاه جهان.

قلت مقاطعا: أليس هو الذى بنى تاج محل؟

قال سنغ وهو يشير إلى الجامع الكبير: إن شاه جهان فى الهند يعادل ملككم رمسيس الثانى فى مصر فى حبه وولعه بالعمارة، وآثاره تشهد على ذلك فى دلهى وأجرا.

وكانت رؤية الديوان الخاص فى قلب القلعة الحمراء كفيلة بإقناعى بكلمات سنغ، وهو قاعة فسيحة اتساعها ٢٥×٣٠مترا



فتاة تعزف السيتار، أشهر الآلات الموسيقية الهندية، وكان سلاطين الأسرة المغولية يعشقون سماع الموسيقى على وقع خرير الماء

تقريبا فرشت بأكملها بالرخام، وزينت جدرانها بزخارف إسلامية بديعة. أما سقفها فكان من الفضة، وقد نهبها الماراثيون (مملكة هندوسية فى غرب الهند) عندما غزوا دلهى عام ١٧٦٠م. وكانت

هذه القاعة معدة لاجتماعات الملك الخاصة، وكان الملك يجلس على عرش من الذهب الخالص يزينه طاووسان ذهبيان ينشران ذنبيهما المرصعين بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والماس، ولذا عرف باسم عرش الطاووس، وكان بينهما ببغاء نحت من قطعة واحدة من الزمرد، وقد حمل هذا العرش العظيم الملك الفارسى نادر شاه عندما غزا دلهى عام ١٧٣٩ إلى فارس، ولكن من المؤسف أن هذه التحفة الفنية قد تعرضت للدمار، ولم يتبق منها سوى أجزاء أعيد استخدامها فى العرش الفارسى الذى يحمل هذا الاسم وإن كان دون العرش القديم فى نفاسته.



وجبة التالى الشهيرة

وفى وسط القاعة قناة رخامية كان الماء المعطر ينساب فيها لكى يعبق القاعة بشذاه، وكان بالقاعة نافذة تواجه الشرق يقال إن السلطان كان يقف فيها عند شروق الشمس ليتقبل التحية



يستخدم ورق الأشجار أحيانا كبديل عن الأوانى والأطباق

من رعاياه.

أما سكن الملك فكان قصرا بديعا تحيطه الحدائق الغنَّاء التى زودت بمدرجات رخامية ينساب عليها الماء كالشلالات، وكان يعرف باسم رانج محل أو القصر المزركش، وكان سقفه مزينا بزهور ذهبية على أرضية من الفضة، وفى وسطه قناة كانت بها أسماك ملونة محلاة بعقود من الذهب واليواقيت.

أما القلعة الحمراء نفسها، أو «لال قيلة» كما يسميها الهنود، فهى حصن عملاق من الحجر الرملى الأحمر، تحيطها أسوار عالية يبلغ ارتفاعها ٣٣ مترا قبالة المدينة، وكان شاه جهان يعتزم أن يجعل من الحصن مقرا له بدلا من مدينة أجرا عاصمة أجداده التى تبعد نحو ٢٠٠ كيلومتر عن دلهى، وقد أحاط مدينة دلهى بسور ضخم يمكن حتى اليوم رؤية بقاياه، ولذا يعرف الجزء القديم من نيودلهى باسم شاه جهان أباد أو مدينة شاه جهان، ولكن القدر لم يمهله للاستمتاع بملكه، إذ إن ابنه أورانجزيب قد ثار عليه حبسه في قلعة أجرا بعد أن أقصاه عن العرش.

غادرنا القلعة من بوابتها الرئيسية التى تحمل اسم لاهور، لأنها تواجه هذه المدينة التى تقع الآن فى باكستان، وقال لى سنغ إن جهانجير، والد شاه جهان، كان قد أقام فيها قصرا بديعها تحوطه الحدائق الغناء وأسماه شاليمار أو موطن الحب.. فقد كان الحب والفن زاد تلك الأسرة.

فارقنا سكون القصر الذى لايقطعه سوى خرير الماء وشهقات الإعجاب التى يثيرها هذا القصر بروعة هندسته وبديع تحفه، وواجهنا ضوضاء نيودلهى. رحنا نشق طريقنا وسط الزحام عبر الدروب الضيقة التى تعج بالمتاجر الشرقية التى تعرض التحف



عروس تحتفل بزواجها
بتقديم قربان لشجرة مقدسة

والمنسوجات والتوابل، وكان المشهد بديعا ذكرنى بخان الخليلى فى مصر. كان الجو أقرب إلى الكرنفال لكثرة الأزياء وتعدد الأجناس، ولكن أبدع ما فيه ذلك السارى الهندى، الزى التقليدى الذى حافظت عليه المرأة الهندية حتى الآن، رغم أن الرجل الهندى بات الآن يميل إلى ارتداء الأزياء الأوربية، وتخلى عن زيه التقليدى، الجلباب القصير والسروال الأبيض والحزام العريض والعمامة. فالسارى رغم أنه ليس بالزى العملى لكنه يبرز رشاقة قوام المرأة، ويضفى عليه سحرا بألوانه الزاهية ونقوشه البديعة، هو قطعة من القماش تلف المرأة بها خصرها،

وتغطى بطرفه صدرها وظهرها، وترتدى تحتة «بلوزة» لتستر النصف العلوى تماما.

والمرأة الهندية ساحرة، ومما يزيدها فتنة بشرتها الخمرية واتساع عينيها وشعرها الفاحم الناعم، وقلت لسنغ مداعبا:

– كم يبلغ مهر العروس هنا؟

– إذا كان الزوج متعلما ويشغل وظيفة لابأس بها، حوالى ٥٠ ألف روبية.

– وإذا كان سائحا غلبانا مثلى؟

ابتسم سنغ عندئذ وقال:

– تكون فرصة طيبة، فالعروس هى التى تدفع المهر لا العريس، وفوق ذلك تقدم له ولأهله الهدايا.

فقلت وأنا أشير مداعبا إلى فتاة حسناء كانت منهمكة مع صديقتها فى انتقاء سارى من أحد الباعة:

– إذن فهل لك أن تكون وسيطى مع هذه الفتاة؟

قال سنغ ضاحكا:



رقصة هندية تصور أحد الأساطير القديمة

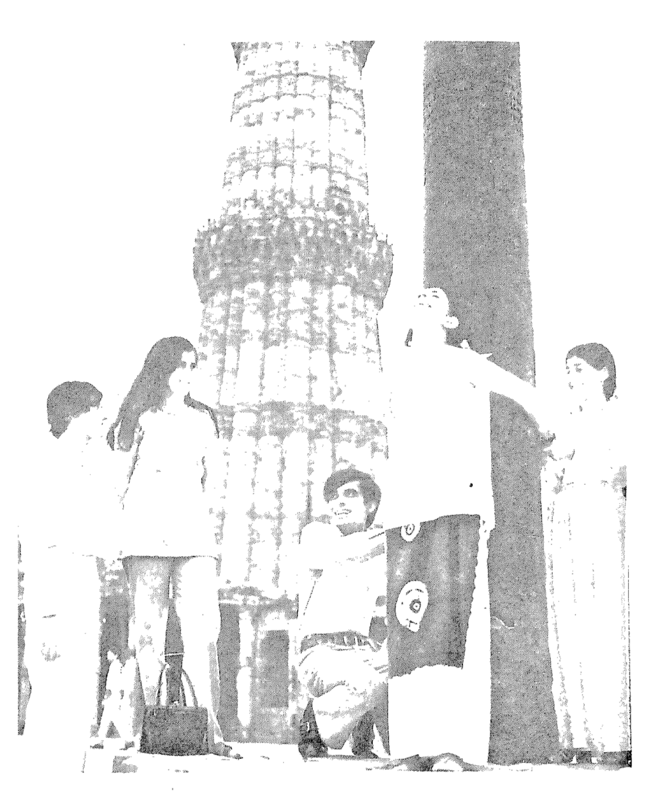
– مع الأسف ياصديقى إننا فى الهند نعانى من مشكلة نقص الفتيات، فعدد الرجال هنا أكثر من عدد النساء بثلاثة فى المائة.

وقبل أن نصل إلى جامع دلهى، لاحظت بناء غريبا يحمل لافتة تقول «مستشفى الطيور»، فالتفت إلى سنغ مستوضحا، فقال:

– إنه مستشفى أقامته الطائفة الجينية لعلاج الطيور المريضة،

وهـى طائفة دينية أسسها حكيم هندى فى القرن الخامس ق.م يدعى «مـها فيرا»، وهـم لايؤمنون بوجود إله، ويعتقدون أن الكون أزلى لاخالق له، ويعتقدون فى تناسخ الأرواح، وأن الروح تنتقل من جسد إلى آخر حتى تصل إلى مرحلة الموكشا أو الخلاص، وهذا الخلاص يعتمد على تجنب إيذاء أى مخلوق، ولذا فهم نباتيون لا يأكلون اللحوم، ولايقتلون أى حيوان أو حشرة، بل إن رهبانهم يضعون على أفواههم قطعة من القماش حتى لايبتلع الواحد منه خطأ ذبابة أو باعوضة، فيأثم بقتلها، ومنهم طائفة تغالى فى الزهد حتى أنهم يحرمون ارتداء الملابس، ويعيشون فى أديرة مغلقة.

وفى المسجد الجامع راعنى مشهد المصلين وهم ينتظمون صفوفا متتالية يكاد يخطئها العد، فهذا الجامع هو أكبر المساجد الهندية ويقال إنه يسع ٢٥ ألف مصل وهو تحفة معمارية كسائر منشآت شاه جيهان، ويتوسط الجامع ميدان فسيح، ويؤدى إلى مدخله درج عريض. وعند كل ركن من أركانه برج تعلوه قبة رشيقة قائمة على أعمدة دقيقة فكأنها معلقة فى الهواء، وللجامع ثلاثة مداخل تعلوها قباب صغيرة رشيقة، ومن المدخل ندلف إلى الصحن الفسيح الذى تحفه الأروقة المعمدة، أما بيت الصلاة فتعلوه ثلاث قباب شامخة ومئذنتان مرتفعتان (٤٠ مترا) من الحجر الرملى



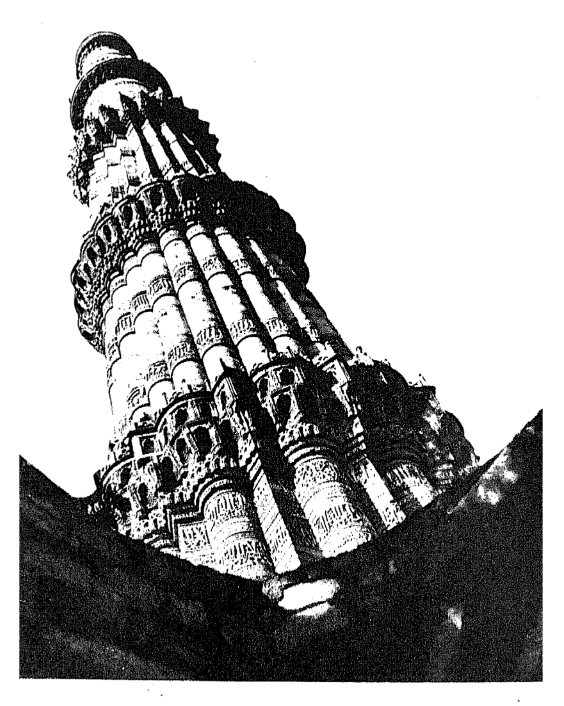
العمود الحديدى فى مسجد قوة الإسلام

المزين بشرائط رخامية بيضاء. وفى أحد أركان الجامع مقصورة بها آثار تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم منها شعرة من لحيته وخف له وقطعة من الرخام يقال إنها تحمل طابع قدميه، كما أن بالجامع نسختين قديمتين من القرآن الكريم، يقال إن إحداهما بخط الإمام على والأخرى بخط ابنه الحسين.

وقبل أن نفارق دلهى القديمة شاهدت أثرا بديعا يعرف بمزولة الأمير، وهو مرصد قديم أقامه مهراجا يدعى جاى سنغ عام ١٧٢٥ وبه مزولة شمسية ضخمة.

وكنت قد بدأت أشعر بالجوع والتعب، فطلبت من سنغ أن نتناول طعاما هنديا، فاصطحبنى إلى ميدان كونوت، وهو من أشهر ميادين العاصمة الجديدة نيودلهى، وتوجهنا إلى مطعم صغير نظيف ولكنى لاحظت أن المطبخ مكشوف، وقال لى سنغ إن العقائد الدينية فى الهند تحرم أطعمة معينة فالهندوس لا يأكلون لحم البقر والجينيون لا يأكلون اللحم على الإطلاق أما المسلمون فلا يأكلون لحم الخنزير ولكى يطمئن الزبائن على أن طعامهم لايخالف عقائدهم يعمد الكثيرون إلى كشف مكان إعداد الوجبات.

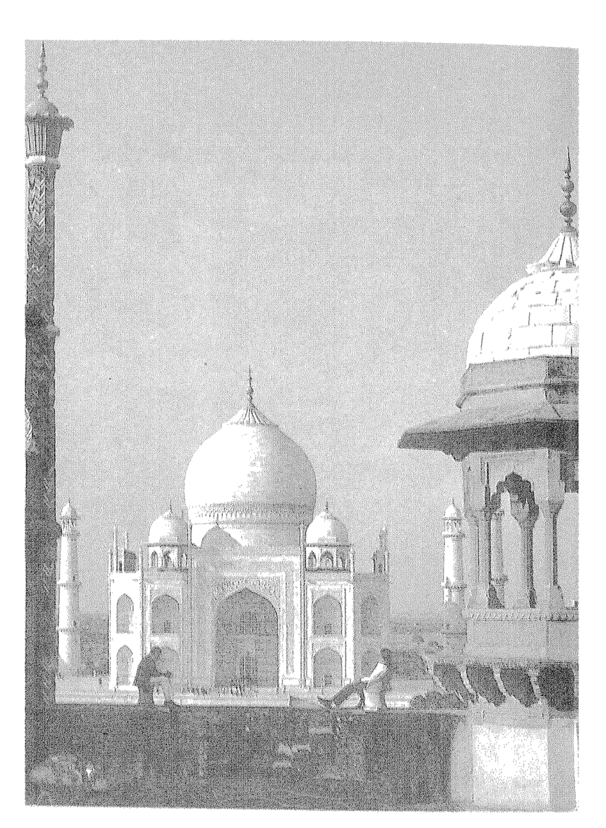
وطلب سنغ لونا يسمى «تالى»، قال لى إنه من أشهر الأكلات



مئذنة جامع قطب الدين (قطب منار)

الهندية، ودهشت حينما وجدت النادل يقدم لى كومة من الأرز على ورقة عريضة من أوراق الموز، وقد أخبرنى سنغ أنه كان من المعتاد فى الماضى استخدام أوراق الموز الغليظة بدلا من الأطباق والكثير من المطاعم الشعبية تحافظ على هذه العادة، وقدمت لى مع الأرز ألوانا من الخضراوات المطهية، وقبل أن أشرع فى تناول الطعام وجدت سنغ يقدم لى دورقا من الماء فلم أفهم ما يعنيه لا بعد أن تذوقت الأرز المخلوط بالخضراوات، فقد أحسست بالنيران تشتعل فى شفتىّ وفمى، ومنهما تمتد إلى جوفى، إذ إن الهند بلد التوابل، وأهلها يسرفون فى استخدامها لأنهم يعتقدون أنها تنشط الجسم فى الجو الحار.

وكأنما أراد سنغ أن يعوضنى عن هذه المأساة، فأخذنى فى المساء إلى مسرح متخصص فى عرض الرقصات الهندية، وللرقص والموسيقى فى الهند شأن كبير، فالرقص إذا كان فى أى بلد فناً رفيعًا، فهو فى الهند صلاة وعبادة، وارتباطه بالمعبد قديم قدم التاريخ، ولهم فى تفسير ذلك أسطورة تقول: إن الإله شيفا قد أحب ربة تدعى ساتى، وتقدم لخطبتها، لكن أباها رفض أن يزوجها له، فانتحرت الربة يأسا بإحراق نفسها، فقتل شيفا أباها، ورقص رقصة الدمار، ثم عادت ساتى إلى الحياة، فرقص شيفا رقصة

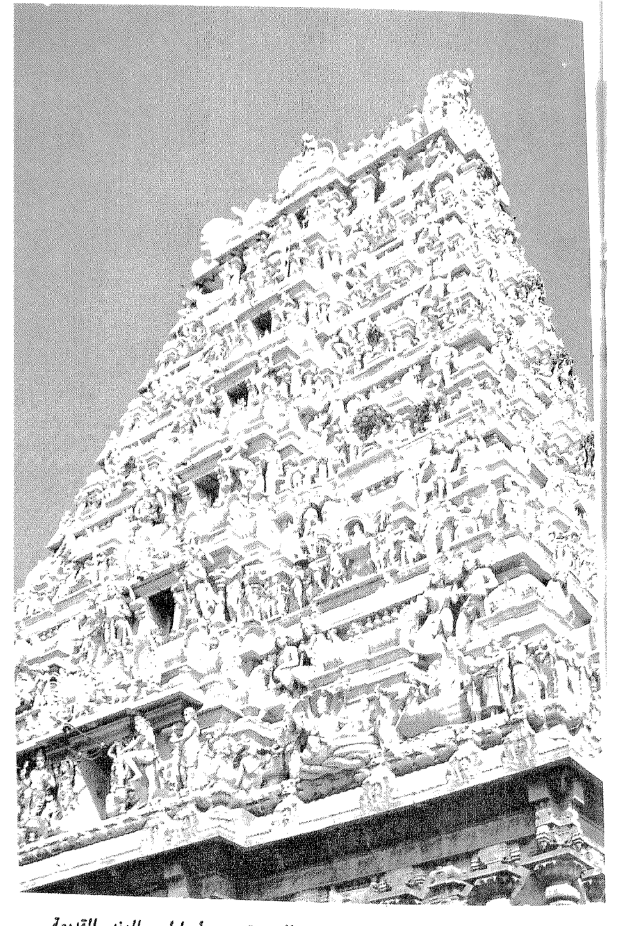


تاج محل

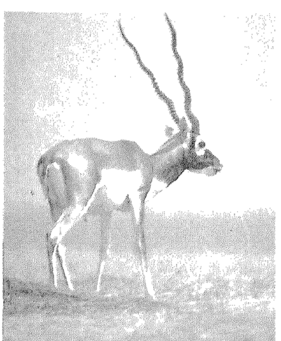
المعبد الذهبى

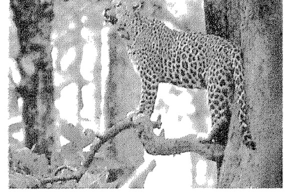


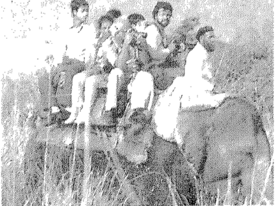
المصنوعات الشرقية فى أسواق دلهى



برج معبد برشاساراتى تغطيه النقوش التى تصور أساطير الهند القديمة







الحياة، ولما كان الهندوس يؤمنون بأن الوجود سلسلة متواصلة من حلقات الوجود ثم الفناء، فالرقص هنا يرمز إلى تواصل الحياة. أما الموسيقى الهندية فهى معروفة لنا ومحبوبة بفضل السينما، ولكن موسيقى الأغانى الهندية هى فى الواقع مزيج من الموسيقى الغربية والموسيقى الهندية الأصلية أو الكلاسيكية، وتعتمد هذه الموسيقى على الآلات الوترية وآلات الإيقاع، وعادة ما تتألف الفرقة من ثلاثة عازفين أحدهم يعزف بآلة السيتار التى تشبه الجيتار وإن كانت أكبر حجما وأخرى تسمى السارود وتعزف بالقوس كالكمان، أما آلة الإيقاع فهى الطبلة المزدوجة.

وفى اليوم التالى وقبل أن نغادر نيودلهى إلى أجرا انطلقنا إلى جنوب المدينة لنزور جامع قوة الإسلام، أول مسجد بنى على أرض الهند عقب فتح دلهى علي يد السلطان محمد الغورى عام ١١٩٢م. ويقال إنه بنى من أنقاض بعض المعابد الهندية المتخربة، ومنها نصب من الحديد، صنع من سبيكة معينة لم تصدأ رغم مرور السنين، وكان الملك الهندوسى شندران فاران قد أقامه فى أحد المعابد فى القرن الخامس الميلادى. ويدل هذا على مبلغ ماوصل إليه حكماء الهند من تقدم فى علوم الكيمياء.

وبالقرب من هذا المسجد جامع شهير أسسه أول سلاطين دلهى

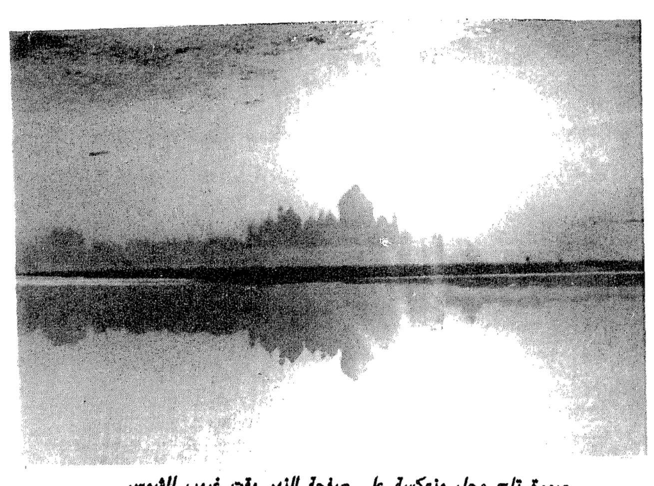
المسلمين «قطب الدين» الذى كان فى الأصل قائدا لجيش السلطان محمد الغورى. وأهم معالم هذا المسجد مئذنته الشاهقة التى يبلغ ارتفاعها ٧٣ مترا، ويستدق جسمها كلما ارتفعت مما يجعلها أشبه بالمخروط وهى تبدو كما لو كانت نصبا تذكاريا يشير إلى انتصار الإسلام على الوثنية.

أجرا

عدنا إلى نيودلهى لنستقل القطار إلى أجرا لزيارة درة الهند «تاج محل»، وفى الطريق إلى المحطة استرعى انتباهى بناء ضخم تعلوه قبة بصلية بديعة وتحيطه حدائق فسيحة، وأحسست أننى رأيت هذا البناء من قبل، وفجأة تذكرت أين رأيته، فقلت لسنغ فى دهشة: أليس هذا تاج محل؟

ابتسم سنغ وقال: لا.. إنه ضريح السلطان هومايون، جد شاه جهان، وهو النموذج الذى استلهم منه المهندس، فيما يقال، طراز ضريح السلطانة ممتاز محل المعروف بتاج محل.

فقلت: وهل كان مهندسه هنديا؟



صورة تاج محل منعكسة على صفحة النهر وقت غروب الشمس

قال سنغ: إن السلطان لم يضن على عمله بشىء فقد استقدم مهرة الصناع والمهندسين من مختلف أنحاء مملكته ومن خارجها بل ومن إيطاليا وفرنسا، وهناك من ينسب العمل إلى أحمد اللاهورى، بينما يرى آخرون أن مهندسه فارسى من شيراز يدعى عيسى خان، ولكن الأرجح أنه كان عملا جماعيا تضافرت فيه عبقرية الشرق والغرب لتصنع هذا الأثر الخالد.

وفى المحطة أدهشنى أن أجد قطارا بخاريا فقلت لسنغ: لقد

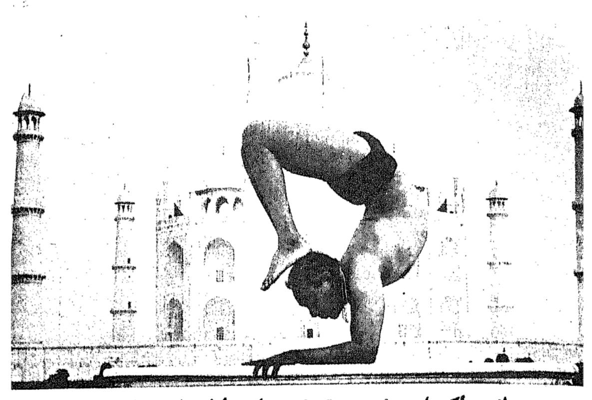
كنت أظن أن القطار البخارى قد انقرض؟

فأجاب: إن شبكة السكك الحديدية فى الهند من أكبر الشبكات فى العالم ومن أقدمها أيضا، فتاريخها يعود إلى منتصف القرن الماضى، ولولاها لما تحققت وحدة الهند، ولكننا لسنا دولة بترولية ولذا فقد حافظنا على الكثير من القطارات البخارية القديمة التى تسير جنبا إلى جنب مع القاطرات الحديثة.

وأحسست وأنا أركب القطار البخارى أننى أنساب معه عبر الزمان، وبينما كنت أرقب من نافذة القطار ضفاف نهر يامونا الذى كنا نسير بحذاه، أخذ سنغ يروى لى كيف أحب شاه جيهان زوجته الأثيرة أرجوماند بانو، التى أعطاها لقب ممتاز محل أى سيدة القصر الأثيرة، وقد أنجبت له ١٣ طفلا، ويبدو أن ذلك قد أثر على صحتها، فتوفيت وهى تلد طفلتها الرابعة عشرة، وأصاب الحزن الملك، الذى ظل يبكى زوجته لمدة عامين، ثم قرر أن يبنى لها ضريحا فخما يخلد ذكراها عبر السنين.

فقلت له: كأنك تروى لى قصة أمير من ألف ليلة وليلة!

فقال: وماذا ستقول إذن لو سمعت قصة والده جهانجير فعندما كان أميرا أحب ابنة أحد رجال البلاط، وكان فى الأصل رجلا



لاعب اكروبات هندى يستعرض مهارته أمام تاج محل

فارسيا فرفض السلطان أكبر والد الأمير أن يزوج ابنه بتلك الفتاة، وأمر والدها بأن يزوجها من أحد القواد، ولكن ذلك لم يؤثر على الأمير العاشق، وما أن توفى والده وارتقى العرش حتى أمر القائد بأن يطلق زوجته، فلما رفض، دس له السم وتزوج أرملته، التى أطلق عليها اسم نورجيهان أى نور الدنيا.. ما رأيك الآن فى هذه القصة؟

فقلت ضاحكا: إنها فيلم هندى!

كانت أجرا تبعد حوالى ٣٠٠٠ كيلومتر جنوبى شرق نيودلهى،

وهى مدينة صغيرة ريفية الطابع، لكنها تستمد أهميتها من آثارها العريقة، فقد كانت حاضرة إسلامية هامة وعاصمة سلاطين المغول المسلمين حتى قرر شاه جهان نقل العاصمة إلى دلهى حيث أقام القلعة الحمراء والمسجد الجامع.

وبدأنا جولتنا بزيارة القلعة، وهى لفرط ضخامتها تكاد تكون مدينة حقيقية فى قلب أجرا، ويحيطها سور ضخم ارتفاعه ٢٠ مترا، وحولها خندق عرضه ١٠ أمتار، وهى كالقلعة الحمراء فى دلهى تشرف على نهر يامونا، وقد بدأ بناؤها فى عصر السلطان أكبر جد شاه جهان، ولكن معظم المبانى القائمة تعود إلى عصر حفيده، ومن أجملها مسجد اللؤلؤة الذى يعتبر تحفة معمارية تمتاز بحسن النسب وروعة النقوش، كما بنى به شاه جهان قصرا لزوجته الأثيرة ممتاز محل يعرف ببرج الياسمين.

ومن نافذته رأيت مشهدا بديعا، كان النهر ينساب أمامى وعلى ضفته الخضراء التى تزدان بحدائق غناء ينهض بناء مربع فخيم تعلوه قبة رخامية بيضاء سامقة تحفها قبيبات أنيقة ومآذن رشيقة ترتفع صوب السماء، كان البناء يتألق نورا فى ضياء الشمس وسط بساط الخضرة التى أبرزت صفاء ضيائه.. كان أمامى تاج محل، ومن خلفى جاء صوت سنغ: من موضعك هذا كان شاه جيهان

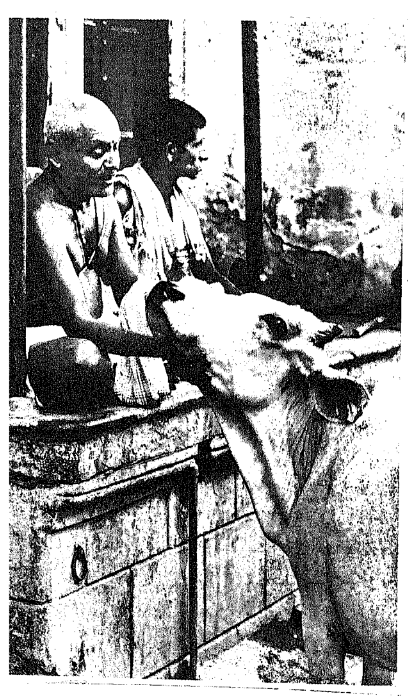
يرقب ضريح زوجته الحبيبة.

فقلت: ما هذا بضريح، إنه قصيدة شعر.. أنشودة حب.

تنهد سنغ ولم يعقب، فقلت وأنا أنقل البصر بين تاج محل والقصر الذى نقف فيه: أليس شاه جهان يعنى بالفارسية ملك الدنيا؟

قال سنغ: بلى.. لكنه صدقنى كان أتعس أهل زمانه.

فقلت وصور قصوره المترفة فى



كاهن هندوسى يداعب بقرة

دلهى وأجرا ترتسم فى ذهنى:

– وهل من يحيا وسط كل هذا النعيم يكون تعيسا؟!

قال سنغ: لقد كان له أربعة أبناء ذكور عينهم حكاما لمقاطعات مملكته، وفى عام ١٦٥٧ أصيب بمرض شديد، فظن أولاده بأنه مشرف على الموت، وتنازعوا العرش، واستطاع أورانجزيب أن يهزم إخوته، وحاصر هذه القلعة، حيث كان أبوه يتماثل للشفاء، حتى استسلمت، فنصب نفسه ملكا وحبس أباه هنا حيث ظل ثماني سنوات سجين هذا القصر إلى أن مات فى عام ١٦٦٦ ودفن إلى جوار زوجته.

* * *

إذا كانت مصر تعرف بالأهرام وفرنسا ببرج إيفل فالهند تعرف بتاج محل.

كانت هذه العبارة تلح على ذهنى وأنا واقف فى خشوع أمام الضريح الرخامى لشاه جيهان وزوجته فأرفع عينى لأتأمل الزخارف والنقوش التى تزين الجدران والسقوف، وهى ليست زخارف مرسومة، بل نقوشا مطعمة بالياقوت والزمرد والزبرجد، أما الآيات القرآنية فمكتوبة بقطع الرخام الأسود الملبس فى أرضية بيضاء،



أحد الحجاج يزور معبد القردة المقدسة

وقد راعى الفنان قواعد المنظور بحيث يرى الواقف النقوش العالية بنفس حجم النقوش المنخفضة ويقال إن الضريح كان محاطا بسور من الفضة وأن القبة كانت مغطاة بغشاء من الذهب الخالص لكنهما نهبا فى الماضى.

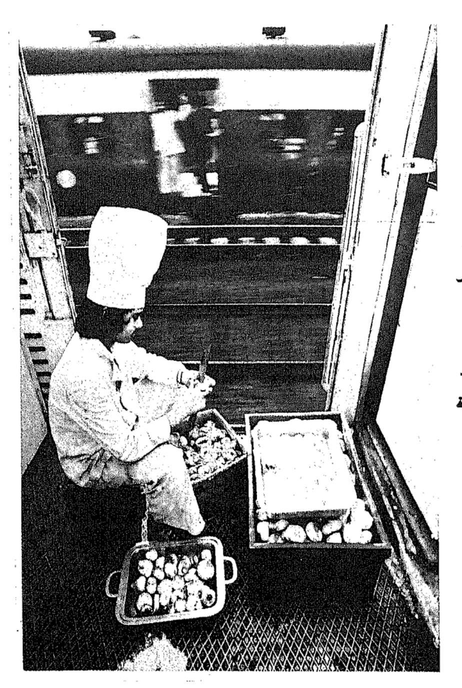
أما أبدع مشهد يتجلى فيه هذا الأثر فهو فى ضوء القمر وسط سكون الليل، حينئذ يتألق السطح الرخامى فى ضوء

القمر الشاحب فيثير فى النفس النشوى حتى يكاد ينطقها بآيات الشعر.

وفى اليوم التالى عبرنا النهر لنشاهد مقبرة اعتماد الدولة والد السلطانة نورجيهان وهى أول مقبرة تبنى بأكملها من الرخام فى العصر المغولى، ثم ذهبنا إلى بلدة سيكندرا على بعد ١٠ كيلومترات شمال أجرا لنشاهد ضريح السلطان أكبر الذى حكم الهند ٤٩ عاما (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وكان محاربا شجاعا وسياسيا بارعا، وفوق ذلك كان عاشقا للآداب والفنون، وقد رفع الجزية عن رعاياه من الهندوس، وساوى بينهم وبين المسلمين، وأظهر تسامحا كبيرا معهم، حتى زعم البعض أنه أراد أن يؤلف دينا جديدا يجمع بين الإسلام والمسيحية والهندوسية. وللضريح أربعة أبواب من الحجر الرملى الأحمر، يقال إن أحدها كانت ترمز للإسلام والثانية للهندوسية والثالثة للمسيحية والرابعة للعقيدة الجديدة التى تجمع بين الديانات الثلاث.

بنارس (فارانسي)

من أجرا ينحدر نهر يامونا صوب الجنوب الشرقى حتى يلتقى بنهر الجانجا بالقرب من مدينة بنارس (فارانسي) المقدسة، كعبة



ينتقل ملايين من الهنود عبر السكك الحديدية التى تربط شبه القارة الهندية بمسافات شاسعة

الهندوس.

على صفحة النهر المقدس، انساب بنا القارب الذى انساب بنا القارب الذى استأجرناه لنشاهد شروق الشمس على المدينة ومنه أخذنا نرقب فى خشوع أشعة الشمس وهى تصافح واجهات المعابد المتراصة على شاطىء النهر، فتبرز من وسط الظلمة

بنقوشها العجيبة التى تصور أساطير، فكأنما كل منها كتاب مصور قد من الحجر.

أما شاطىء النهر فتغطيه مدرجات حجرية من جانبه الغربى تنزل إلى مستوى الماء، وإليها يقبل الحجيج، رجالا ونساء، وهم يحملون باقات الأزهار لينثروها على ماء النهر الذى ينزلون فيه ليغتسلوا من أدرانهم وليحمل عنهم أوزارهم ليقذف بها، كما يحسبون، فى ماء المحيط.

ويطلق الهنود على هذه المدينة اسم فارانسى، أى مدينة النهرين فارونا وآسى اللذين يطوقانها. وهى من أقدم مدن الهند، وبالقرب منها بدأ بوذا يبشر بتعاليمه فى القرن الخامس قبل الميلاد. وبها جامعة عريقة يفد إليها الطلاب لدراسة اللغة السنسكريتية لغة الهند القديمة التى كتبت بها أسفار الديانة الهندوسية.

والهندوسية كما يتضح من اسمها ديانة هندية، إذ لايكاد يكون لها وجود خارج الهند إلا فى جزيرة بالى بأندونيسيا وجزيرة سيلان (أو جمهورية سرى لانكا). والهنود لايبشرون بديانتهم، إذ يعتقدون أنها خاصة بهم، ولايمكن للمرء أن يعتنقها ما لم يولد من أبوين هندوسيين، لأن ميلاده يحدد له طبقته كما ذكرنا من قبل.

والهندوسية من أقدم ديانات العالم، وهى مزيج من عقائد الدرافيديين القدماء وعقائد الغزاة الآريين، وأشهر كتبها هى أسفار «الفيدا»، وهى كلمة سنسكريتية تعنى المعرفة، والهندوس يؤمنون بتناسخ الأرواح، ويعبدون آلهة عدة يمكن اعتبارها تجسيدا لصفات الإله الواحد، الذى



أحد الحجاج ينزل السلم الحجرى إلى النهر

يتخذ ثلاث صور أساسية هى براهما (الخالق) وفشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر)، ويصور هؤلاء الأرباب بأربعة أذرع دلالة على عظم قوتهم، أما براهما فيصور بأربعة وجوه ترمز إلى أنه لايخفى عنه شىء.

وزوجة براهما هى ربة المعرفة ساراسفاتى، وهى إلهة رقيقة تصور فوق ظهر بجعة وتمسك فى يدها بآلة موسيقية وترية (الفينا)، أما زوجة شيفا فهى شخصية مزدوجة، تتبدى أحيانا فى صورة امرأة حسناء تدعى بارفاتى أى الجميلة، وفى أحيان أخرى تأخذ صورة امرأة عنكبوتية لها عشر أذرع بكل ذراع خنجر، وحول عنقها عقد من الجماجم، وتعرف فى هذه الصورة باسم كالى ومنها اسم المدينة الهندية الشهيرة كليكتا.

وكانت عبادتها فى الماضى تقتضى تقديم ضحايا بشرية، ولكن كهنتها اليوم يقدمون لها حيوانا صغيرا مثل الماعز.

ومن الغريب أن يلد هذان الزوجان الرهيبان، شيفا وكالى، الإله جانش رب الحكمة والرخاء الذى يصور على هيئة رجل برأس فيل.

كان الشاطىء قد بدأ يزدحم بالحجيج، وأخذ يرتفع صوتهم بالصلوات والدعاء، بينما تدفقت أكاليل الزهور على صفحة النهر،

وإذا بى أشم رائحة بخور ذكية فقلت لسنغ: ما أبدع هذه الرائحة! إنها رائحة العود والصندل من أين تأتى؟

أشار سنغ إلى أحد المدرجات الجرانيتية التى تغطى ضفة النهر، والتى تعرف بالهندية باسم الغات، فرأيت نيرانا مشتعلة، وحولها مجموعة من الحجيج، وبينهم فتى يحمل فى يده مشعلاً، ويلف ويدور حول النار ليزكيها، فظننت أنه كاهن يحرق قربانا لإلهه، ودققت النظر، فإذا بى ألمح ساقى رجل وسط النيران، فصحت فى فزع: إنهم يحرقون رجلا قربانا لكالى!

فأشار لى سنغ بالصمت، وقال: كلا، إنهم يحرقون هذا الرجل المتوفى كعادتنا فى الهند ليلقوا برماده فى مياه النهر، وهذا الفتى الذى يحمل المشعل هو أحد أقربائه، وربما ابنه، وهو يحرص على أن تحرق الجثة كلها. والهندوس يعتقدون أن من يموت هنا فى هذه المدينة المباركة ويلقى برماده فى نهر الجانجا يجد الطريق أمامه مفتوحا إلى السماء كى تمتزج روحه بالإله الخالق، فينجو من شقاء هذا العالم.

وبينما كنت أراقب الحجاج على شاطىء النهر إذا بى ألمح عن بعد برجين شاهقين خلت أن فوقهما هلالا، فقلت لسنغ: إن من

يرى هذين البرجين يحسب أنه يرى مسجدا .

فقال سنج: وإنهما كذلك.

فقلت فى عجب: وكيف يبنى الهندوس مسجدا فى كعبتهم، فضحك سنغ وقال: لقد خضع شمال الهند لحكم المسلمين زمنا طويلا، بما فى ذلك هذه المدينة، ولقد أظهر المسلمون تسامحا مع الهندوس لاسيما فى عهد السلطان أكبر، لكن السلطان أورانجزيب، ابن شاه جيهان كان يكره الهندوس، فدمر معابدهم، وأقام هذا الجامع من أنقاض بعضها، ومئذنتاه اللتان ترتفعان ٧١ مترا عن سطح الأرض ترمزان لانتصار الإسلام على الوثنية، وحكومة الهند الآن علمانية أى لاتحابى دينا على دين وهى تحافظ علي هذا المسجد وتحميه من المتعصبين الهندوس، وبقاؤه اليوم ضرورى لأنه يرمز إلى إمكانية التعايش بين الديانات المختلفة التى تدعو كلها إلى الخير مهما اختلفت صورها .

ومدينة فارانسي على شهرتها تقع فى إقليم ريفى مكتظ بالسكان، ولذا فشوارعها مزدحمة ضيقة لاتكاد تصلح إلا للسير على الأقدام، لكنها عامرة بالمعابد البديعة، ومن المؤسف أنه من الصعب على غير الهندوس زيارتها ، ومن أشهرها المعبد الذهبى

المكرس للإله شيفا، وبه بئر عجيبة يقال إن الكهنة قد أخفوا فيها شعار الإله عندما تعرض المعبد للدمار، ويقال إن من ينظر فيها تتحقق جميع أمانيه، وأبراج المعبد مغشاة بالذهب، ويقال إن وزن هذا الذهب يصل إلى ثلاثة أرباع الطن وقد علمت أنه كان هدية من مهراجا قديم يدعى رانجيت سنغ، تعجبت من سفه الإنسان الذى يظن أنه يتقرب إلى الله بتكديس الذهب فى المعابد بينما شعبه يتضور جوعا.

أما أطرف معابد المدينة، فهو معبد القردة كما يطلق عليه السائحون، ولكنه فى الواقع معبد للربة بارفاتى زوجة شيفا، التى قلنا من قبل إنها تتبدى بشخصيتين، فتارة هى سيدة حلوة رقيقة، وتارة هى غول متعطش للدماء، وفى هذه الصورة الأخيرة تعبد فى هذا المعبد تحت اسم دوجا، ورمزها المقدس هو القرد، ولذا تعيش فى حديقة هذا المعبد مجموعة القردة، والقردة فى العادة مخلوقات لطيفة محبوبة، ولكنها قد تنقلب إلى الشراسة مثل ربتها وتلجأ إلى مهاجمة الزوار واختطاف مناظيرهم مثلا إن طالتها أيديها، ولايسمح بطبيعة الحال لغير الهندوس بدخول المعبد -لحسن الحظ- وإن كان من الممكن رؤية هذه الوحوش الصغيرة من ممر علوى مواز للحديقة.

كليكتا

انحدرنا صوب الجنوب الشرقى لزيارة كليكتا أكبر مدن الهند (١١ مليون نسمة تقريبا) وعاصمة ولاية البنغال الغربية، وهى تقع بالقرب من ساحل خليج البنغال وإن كانت لاتطل عليه مباشرة، ولكنها تتصل به عن طريق نهر دوجلى.

ومن نافذة القطار رحت أراقب حقول الأرز والجوت وهو نبات تستخدم أليافه لصناعة المنسوجات الخشنة مثل قماش البالات، وكلما اقتربنا من كليكتا ازدادت الأدغال كثافة، وارتفعت درجة الرطوبة ووسط أشجار المانجو والنخيل وأجمات البامبو العالية رأيت القرى الهندية، وهى لاتختلف كثيرا فى مظهرها البسيط عن قرى الريف المصرى البسيطة التى تبنى من الطين، ولكن السقوف تتخذ من سعف النخيل وجذوعه.

ويمثل الفلاحون ٧٠٪ من السكان، وحياتهم كبيوتهم طابعها البساطة والخشونة، ومازال الكثيرون منهم يستخدمون الأدوات البدائية اليدوية مثل الفؤوس والمحاريث التى تجرها النيران، ومن الغريب أن الهنود يكنون قداسة للأبقار مثل قدماء المصريين، ولكن هذه القداسة لاتمتد إلى الثيران، والبقرة حيوان مدلل فى الهند،



لايحظى الثور بالمكانة الرفيعة التى تحظى بها البقرة فيسخر فى أداء الأعمال الشاقة، ومن أحب الرياضات إلى الهنود سباق الثيران

فهى تسير فى وسط الطرقات، بل وقد يحلو لها أن تستلقى فى الطريق، فيوقف السائق سيارته ويظل يلاطفها ويحايلها حتى تنصرف، والعامة يتبركون ببولها ومنهم من لايتورع عن شربه، ويلطخ جدران بيته بروثها لتطهيره والتماس البركة.

ويقسم نهر دوجلى كليكتا شطرين يربطهما جسر حديث من الجسور المعلقة التى لاتستند إلى دعائم فى وسط هذا النهر المتدفق

الواسع، ولكنك إن وقفت على الشاطىء ونظرت إلى الجسر يخال لك من شدة زحام المارة أنك ترى نهرا آخر بشريا يصب بين طرفى المدينة، وتخال أن سيارات الباص ذات الدورين، التى أخذها الهنود عن البريطانيين، زوراق تعبر وسط أمواجه.

والمدينة حديثة نسبيا إذ لايزيد عمرها عن أربعة قرون أو أقل إن شئنا الدقة، وقد رأيت على ضفة النهر ميدانا فسيحا تكسوه الخضرة وفى طرفه ينهض حصن شامخ يعرف بقلعة وليم، وقد روى لى سنغ أن تاجرا إنجليزيا كان يدعى جوب تشارنوك قد أحب أرملة هندية، وكانت التقاليد تدعو المرأة فى الماضى إلى أن تحرق نفسها إذا مات زوجها، ولما كان الهنود يعتقدون فى التناسخ وأن الموت هو بداية حياة جديدة أفضل وأرقى درجة للأخيار، كانت الأرامل يرحبن بذلك، وقد روى مؤرخنا العربى ابن بطوطة فى العصور الوسطى أن ثلاثة من فرسان الهندوس الذين كانوا فى خدمة سلطان دلهى المسلم قتلوا فى حادثة، فقررت أراملهن أن يحرقن أنفسهن، وقد رأى ابن بطوطة الأرملة الأولى وهى تتجه إلى المحرقة ضاحكة، بل وأخذت تهون على الناس الذين أفزعتهم رؤية ألسنة اللهب المتصاعدة، وعندما ألقت بنفسها فى النار، أغشى على الرحالة العربى فلم نعرف ماحدث لزميلتيها.

المهم أن الأرملة التى أحبها التاجر الإنجليزى لم تكن لها شجاعة أرملة الفارس الأول فرفضت الانتحار، وكانت التقاليد تبيح للمرأة التنصل من أداء هذه الطقسة، ولكنها بذلك تعرض شرفها وشرف أسرتها للامتهان، ولاتجد رجلا شريفا من طبقتها يرضى بأن يتزوج منها، وقد تزوجت هى من التاجر الإنجليزى الذى رأى أن هذا الموقع مناسب لتأسيس مركز تجارى هام، فأغرى التجار الإنجليز الآخرين بالاستقرار هنا، وأسسوا مدينة كليكتا، التى حرف اسمها من قرية صغيرة فى هذا الموضع تعرف باسم كاليكاتا أى مرفأ الربة كالى، ربة الدمار.

وكأنما حلت اللعنة على سكان تلك المدينة الجديدة إذ أغار عليها أحد حكام الولايات الإسلامية المجاورة، وهو الأمير سراج الدولة، ففر سكانها، ولكنه أسر مجموعة منهم ووضعهم فى دهليز تحت الأرض، فاختنق معظمهم من شدة الازدحام وقلة الهواء.

وعندما وصلت الأنباء إلى الإنجليز فى مدينة مدراس فى أقصى الجنوب، أرسلوا حملة بقيادة الجنرال كليف، الذى استعاد المدينة، ثم هزم سراج الدولة الذى حاول الاستعانة بالفرنسيين فى موقعة بلاسى، وبعدها أعيد تعمير كليكتا التى أصبحت عاصمة للهند البريطانية حتى تأسيس نيودلهى.

وقد أقام الإنجليز فى مطلع هذا القرن متحفا عظيما قبالة القلعة يحمل اسم الملكة فيكتوريا، وهى أول ملكة بريطانية حملت لقب إمبراطورة الهند، والمتحف يروى باللوحات والتماثيل قصة الاستعمار البريطانى. وبه تمثال للجنرال كليف وبعض المدافع التى استخدمت فى موقعة بلاسى التي دعمت قبضة بريطانيا على الهند. وقد حاول المعمارى أن يمزج العمارة الأوربية بالعمارة المغولية الهندية فى هذا البناء المشيد من الرخام الأبيض.

وللربة كالى معبد هام فى المدينة، تقدم فيه الأضاحى من الحيوانات الصغيرة، ويتلهف العامة على التبرك بدمائها، وخاصة النساء اللائى يعتقدن أنها تشفى من العقم، كما أن مياه النهر تجلب إلى داخل المعبد، وتصب على قدمى تمثال الإلهة لتنزل من فتحة خاصة ليتلقاها المتعبدون، وهم يعتقدون أنها اكتسبت قداسة من ملامسة قدمى الربة.

سكيم

ومن كليكتا اتجهنا شمالا إلى ولاية سكيم لنشاهد قمة إفرست أعلى قمم الدنيا، وكانت هذه الولاية حتى وقت قريب مملكة مستقلة ترتبط بمعاهدة خاصة مع الهند، ثم انضمت لها فى عام ١٩٧٥.

وكان سكانها فى الأصل من عبدة الأرواح، ثم انتشر فيها المذهب البوذى حينما لجأ إليها فى الماضى رهبان طائفة القلانس الحمر، وهى طائفة بوذية يتميز أتباعها بارتداء قلانس غريبة تجعلهم من بعيد أشبه بالببغاوات، وهم يتميزون باللون الأحمر عن أتباع الداى لاما الذين يتخذون اللون الأصفر شعارا لهم، ويتركزون فى هضبة التبت.

وقد شجع البريطانيون أهل بورما على الهجرة إلى تلك المنطقة لاستغلال ثرواتها الطبيعية وكانت الرحلة ممتعة، فالقطار يخترق الغابات والمزارع ثم يعبر نهر الجانجا، ثم يتسلق الجبل فى دروب وعرة شقت فى الجبال التى تكسوها الخضرة وتكثر فيها الحيوانات البرية، وكلما ارتفعنا تغيرت النباتات وكثرت أشجار البلوط والتوت واللوز والخوخ والصنوبر والسرخس.

وقد مررنا بمزارع الشاى الشهيرة، وأشجار الشاى قصيرة وأفضل أنواعه هى التى تعد من أوراقه العليا، التى تقطف باليد ثم تترك لتجف، وبعد ذلك تبرم ويبخر فى درجة حرارة معينة حتى تظهر رائحته.

ولاترى قمة إفرست من مدينة جانجتوك عاصمة سكيم، رغم

ارتفاعها.

مدراس

من ثلوج الهمالايا انحدرنا جنوبا بحذاء الساحل قاصدين ولاية تاميل نادو، الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الهندية، ولسكان هذه المنطقة لغتهم الخاصة، وهم يزعمون أنهم ممثلو حضارة الدرافيديين القديمة، فمنها انحدروا وهم حراس تقاليدها العريقة. والتاميل أشد سمرة من غيرهم من سكان الهند، ولكنهم قوقازيون ولاينتمون إلى الجنس الزنجى، والحرارة والرطوبة هناك أشد مايكون إذ هم أقرب سكان الهند إلى خط الاستواء.

ومدينة مدراس مدينة ضخمة وميناء هام، وقد أسسها الإنجليز فى عام ١٦٣٩، ولكن المدينة على ضخامتها لاتجتذب السائح كثيرا إلا إذا كان من رجال الأعمال، وأهم معالمها قلعة فيلور التى رأينا فيها معبدا صغيرا كان فى الأصل مكرسا للإله شيفا، وعندما أغار السلطان عادل شاه حاكم بيجابور على هذه المدينة فى عام ١٦٧٦ أخفى الكهنة تمثال الإله خشية تحطيمه وقد تحول المعبد فيما بعد إلى متحف، ثم عاد معبدا فى الفترة الأخيرة، وهو من المعابد القليلة التى يمكن لغير الهندوس زيارتها، والمعبد الهندى فى العادة يحتوى

على غرفة تشبه قدس الأقداس فى الكنيسة وتعرف باسم رحم الأم وبها تمثال الإله ويعلوها برج هائل يزين بتماثيل ونقوش تصور الأساطير الهندية، ويتقدم الغرفة رواق ثم صالة أعمدة يتجمع فيها المتعبدون.

وبعض هذه المعابد من الضخامة بحيث إن بهو أعمدتها يضم ألف عمود، ويبلغ ارتفاع بعض أبراج المعابد ٥٠ مترا عن سطح الأرض.

ويكثر حول المعابد المتعبدون أو النساك الذين نعرفهم باسم «فقراء الهنود» والذين تروى عن قدراتهم السحرية القصص والحكايات المثيرة، كقدرتهم على رفع الحبال إلى السماء ثم تسلقها والاختفاء بين السحاب، أو قدرتهم علي النوم على فراش من المسامير وكلها مبالغات، لكنها تستند على شىء من الحقيقة.

فالديانة الهندوسية تدعو الإنسان إلى محاولة التغلب على شهوات الجسد بممارسة ألوان من الزهد والرياضيات الصعبة التى يتحمل فيها الجسد مشاقا هائلة تنمى من قوة الإرادة وتزهد النفس فى متع الدنيا، ويعرف هؤلاء النساك باسم «السادو» أما كبارهم وهم طبقة المعلمين أو المرشدين الروحيين فيعرفون باسم

«الجورو».

والفقير الهندى لايرتدى من الثياب سوى ما يستر العورة، وهو يمضى يومه فى ممارسة الرياضيات الشاقة، ويبالغ البعض فى ذلك إلى حد أن يعلق نفسه فى رافعة، أو أن يظل لفترات طويلة رافعا يديه إلى السماء، حتى يقال إن العضلات قد تتيبس على هذا الوضع، وبالطبع هم يعيشون على الصدقات، مما يغرى الكثير من الكسالى بالتظاهر بأنهم من السادو. ويميز السادو أنفسهم بعلامات خاصة يرسمونها على وجوههم وأجسادهم بالتراب المقدس.

بومباى

اتجهنا غربا صوب مدينة بومباى معقل الإقتصاد الهندى، وهو وصف لامبالغة فيه، فقد كانت هذه المدينة ومازالت حتى اليوم بوابة أوربا إلى الهند، وكانت بومباى فى الأصل مجموعة من الجزر الصغيرة (أكبرها جزيرة مومبا ديفى التى اشتق منها اسم المدينة)، وقد خضعت للبرتغاليين الذين منحوها دوطة للملك شارل الثانى عام ١٦٦١م عندما تزوج أميرتهم كاترينا، وأجرها شارل إلى شركة الهند الشرقية بمبلغ ١٠ جنيهات ذهبية سنويا، وأسست الشركة فيها الميناء الحالى، الذى أصبح أهم موانىء الهند، حيث تمر به

٥٠٪ من تجارتها الخارجية، كما نمت بها قلعة صناعية عملاقة تنتج كل شىء بدءا من الدراجات حتى الصناعات البتروكيميائية.

وهى مدينة أسست على النسق الأوربى، ويخال من يرى عمائرها الشاهقة أنه وسط جزيرة مانهتان فى نيويورك، وليس فى جنوب آسيا. وأهم معابدها الهندوسية مكرس للربة الثروة والسعادة، وهو أمر مفروغ منه فى هذه المدينة الصناعية التجارية.

ومن معالمها الهامة مسجد الشيخ على المقام على صخرة وسط الماء ويربطه بالبر طريق يطغى عليه الماء أثناء المد، ويقال إن الشيخ على هذا قد غرق عند هذه البقعة.

ومن أبدع معالمها الحدائق البديعة التى تكسو تل ملابار، وتبرز على شرف يغطى صهاريج الماء التى تروى المدينة، فيخال الناظر إليها أنها معلقة فى الهواء ومنها كان الاسم.

وبالقرب منها تنهض مجموعة من الأبراج العالية الكئيبة لاحظت أن بعض الطيور الجارحة تحوم حولها ثم تهبط فوق سطحها وهى تطلق صيحات منفرة، فانقبضت نفسى، وسألت سنغ عن أمرها، فقال لى إنها تابعة لطائفة الباريسيين، وهم اتباع زرادشت النبى الفارسى القديم، الذى رأى أن العالم تتنازعه قوتان هما الخير

والشر ويرمز لهما بالنور والظلام، لذا يقدس هؤلاء النار وبعضهم يغالى فى تقديسها هذا حتى أنه يحرم استخدامها فى طهى الطعام، وهم يعتبرون أن الأرض والماء مقدسين كذلك، ولذا فهم لايرحبون بتدنيس تلك العناصر المقدسة بجثث الموتى، فلا يحرقونها ولايدفنونها ولايقذفونها فى الماء، بل يضعونها فوق أبراج عالية لتأكلها الطيور الجارحة، وبذا تدفن فى السماء.

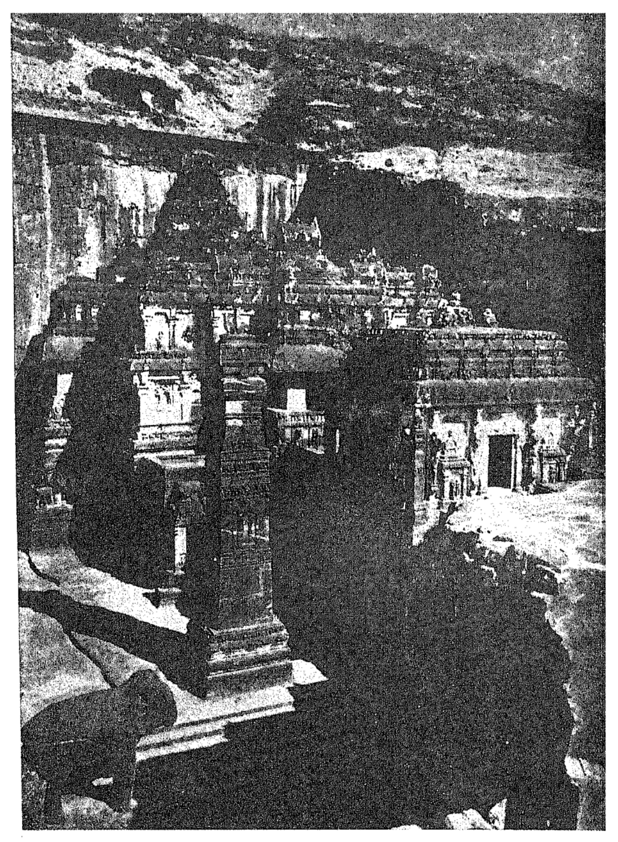
فقلت فى دهشة: وبعد أن تهضمها الطيور، ألا يتحول جزء منها إلى فضلات تسقط على الأرض؟

ابتسم سنغ وقال: أعتقد أنهم لم يفكروا فى هذا، ولكن بلدية المدينة هى التى فكرت فى الأمر، فحينما أزعجتها كثرة الطيور ومخلفاتها التى تسقط فى مستودعات المياه، أقامت هذه الحدائق المعلقةلتحميها.

فقلت: ولماذا لم تطلب من الباريسيين نقل أبراجهم بعيدا؟

قال: لأنهم قوة اقتصادية عظيمة، فهم من أوائل من استوطنوا هذه المدينة، وهم يمثلون جانبا لايستهان به فى قطاع التجارة والصناعة.

ثم زرنا جزيرة الفيلة الشهيرة التى استمدت اسمها من تمثال



معبد منحوت بأكمله في الصخر في منطقة ألورا وأجانتا

فيل عملاق كان قائما بالقرب من مرفئها حتى مطلع القرن الماضى، والفيل فى الهند، كالجمل فى الصحراء، حيوان نقل ومركبة حربية، وسيارة نزهة، وكان وسيلة الانتقال المفضلة فى الهند القديمة، لأن ضخامة حجمه تقى المسافر من شر هجوم أى حيوان مفترس، كما كان مرأي فرق الفيلة كفيل ببث الرعب فى نفوس جيوش الأعداء، وقد اكتسب الفيل قداسة فأصبح رمزا لبعض الآلهة، ولذا نجد تماثيله منتشرة فى كل مكان.

ولكن سر شهرة هذه الجزيرة تتمثل فى مجموعة من المعابد الصخرية التى نحتت فى تلالها، وقد صعدنا إليها بطريق مدرج يبدأ من عند المرفأ، وعلى جدرانها صورت الكثير من القصص الأسطورية من أطرفها لوحة تصور كيف تآمر جنى على الإله شيفا الذى يعيش فوق جبال الهمالايا، فدبر وسيلة يقذف بها الجبل إلى أعلى، لكن الإله بضخامته تلقف الجبل، ثم أرسله إلى أسفل ليسقط فوق الجنى ويحبسه تحته ١٠ آلاف عام.

وقد رأى سنغ أن نختم زيارتنا إلى الهند بمشاهدة كهوف ألورا وأجانتا، الواقعة إلى الشمال الشرقى من بومباى ، وهى مجموعة بديعة من الأديرة والمعابد البوذية الهندوسية القديمة التى نحتت فى صخور الجبل، ويمكن تمييز الدير عن المعبد بسهولة، فالدير يتألف

من دهليز تحفه غرف الرهبان (الخلاوى) وينتهى الدهليز بغرفة بها تمثال بوذا، أما المعبد فيتألف من دهليز طويل تحفه الأعمدة وينتهى بباجودا صغيرة، وهى قبة تغطى رمز بوذا المقدس، وتتميز المعابد والأديرة البوذية ببوابات فخيمه مزينة بالنقوش والتماثيل وبوائك الأعمدة، ولكن أروع آثار تلك المنطقة المعابد الهندوسية التى تفنن فيها المعمارى، فلم يكتف بشق الدهاليز، بل صنع لها سقوفا وأبراجا منحوتة فى الصخر، ومن أهمها معبد كيلاسا الذى نحت من صخرة واحدة ارتفاعها يجاوز ٣٠ مترا وكذلك عرضها، أما طولها فيصل إلى ٦٥ مترا.

والمعبد يرتكز على قاعدة صخرية مزينة بنقوش بارزة لحيوانات، فيتراءى للمشاهد، وكأنما هذا المعبد العملاق الذى يناهز فى ارتفاعه معبد أبو سمبل المصرى، محمول على ظهور تلك الحيوانات.

ومن هنا رحت أتأمل النهر الذى يشق بطن الوادى الضيق، ومن سماء الهند خلت أننى أسمع صوت شاعرها الرقيق الخالد طاغور وهو ينشد:

من بلادى الهند يا أحبائى

أبعث إليكم بأشواقى

يامن تسمعوننى بعد مئات السنين

لعل أغنياتى تعانق فى القلوب أغنياتكم

لعل أغنياتى تعانق حفيف الأشجار

فى كل العالم..

بعد مئات السنين..

* * *



استراليا
كندا
اسبانيا
تركيا
الهند
الصين
اليابان
اندونيسيا
ايطاليا
البرازيل
بيرو
تونس
عمان
بلجيكا
جنوب افريقيا

